الإمبراطورية المتحركة: البدو والمهاجرون واللاجئون العثمانيون

رشاد قصبا

سياتل : طباعة جامعة واشنطن، ٢٠٠٩، عدد الصفحات ١٩٤.

ISBN 9780295989488

رشاد قصبا هو باحث اجتماعي على درجة عالية من الكفاءة في دراسة عمليات التغيير الاجتماعي والاقتصادي في الإمبراطورية العثمانية، وفي هذا الكتاب الذي يتناول الاهتمام المتزايد بالهجرة كقوة اجتماعية وتاريخية؛ يقدم قصبا لقرائه دراسة تمهيدية ممتازة عن حركة الناس على مدار ٦٠٠ سنة من الحكم العثماني، وعموما يعتبر هذا الكتاب قيما، إلا أنه محدود في نطاق النص، لكنه يغطي الدولة العثمانية، ومن الممكن قراءته في قاعات المحاضرات الجامعية أكثر من قراءته في ندوات الدراسات العليا.

كتاب الإمبراطورية المتحركة يوضح كيف أن المهاجرين واللاجئين أسهموا في صناعة التاريخ البشري، وبطرق تسمح لعلماء الاجتماع أن يركزوا على المؤسسات وترابطها مع المجتمعات البشرية على اختلافها وتنوعها، وبوضع هذا التحليل ضمن السياق الأوسع لتطور الإمبراطورية العثمانية على مدى قرون؛ فإننا نلاحظ أن قصبا يركز على تطور إدارة الدولة العثمانية للمجتمعات البشرية، وكأداة تعليمية بحتة، يعتبر هذا النهج هو الأمثل لتحفيز المناقشات في القاعات العلمية حول مجموعة من الموضوعات المترابطة في الوقت الراهن، وكما هو أسلوب قصبا في العرض؛ فكتاب الإمبراطورية المتحركة يساعد القارئ على استحسان الوظائف المتعددة لسياسات الدولة ونتائجها غير المتوقعة عند تطبيقها في تحليل الظروف المختلفة التي تواجه شعوب الإمبراطورية، والحقيقة أن قصبا يسلط الضوء على تنوع الخبرات، فضلا عن الأسباب المتعددة وراء حدوث موجات كبيرة من الهجرة على نطاق واسع في الإمبراطورية العثمانية.

هذا الكتاب يمكن استخدامه كوسيلة تدريس تكميلية، وعلاوة على ذلك فإنه يقدم أمثلة مقنعة لحركة الناس، لشرح كيف أن مثل هذه الأحداث ساعدت بالفعل الإمبراطورية العثمانية على أن تتغلب على القوى المجاورة.

فعلى سبيل المثال في بداية الدراسة، يسلط قصبا الضوء على أن "عادات الهجرة أصبحت عنصرا تأسيسيا في صنع الدول الحديثة"؛ ولذلك يناقش بنجاح أن الانسيابية في المجتمع العثماني الذي احتضن مجموعة متنوعة من الشعوب التي سكنت منطقة البحر الأبيض المتوسط الشرقية؛ منحت الإمبراطورية ميزة، وجعلتها تتفوق على منافسيها التاريخيين، وقد انعكس هذا بوضوح في طريقة الحياة الروحية لمعظم الشعوب التي عاشت وسط بيئة متنوعة الأعراق، الأمر الذي منح الدولة العثمانية وسائل فعالة لدمج الرعايا الجدد غير المسلمين بدلا من اضطهادهم، وفي هذا الصدد فإن العديد من رعايا الإمبراطورية المسلمين اتبعوا ممارسات دينية مختلفة، مثل جمعيات المؤسسات الروحية التي تم تفسيرها على أنها سياسات دولة تهدف الى استيعاب التنوع البشري، بدلا من قهره او اضطهاده، وكل هذه الأشياء كان لها تاثير إيجابي على الطريقة التي شجعت فيها الدولة المجتمعات المتنوعة على التعاون، ومن ثم ازدهارها تحت الحكم العثماني.

وربما كان الأهم وفقا لقراءة كتاب قصبا القصير هو أن الطبقة الحاكمة في الإمبراطورية سنت مجموعة كبيرة من القوانين لحماية حقوق الفلاحين ضد غارات البدو وقطعانهم، كما أن السكان البدو اعتُبروا في سياقات أخرى من التاريخ البشري تهديدا لسيادة الدولة.

هنا يكمن إسهام قصبا الأكثر قيمة لدراسة حركة الإنسان في كيفية أنه ساعد على إدخال طرق محتملة للنهج المقارن لتحليل تاريخ العالم، كما يركز قصبا على إمكانية قيام الإمبراطوريات المتوسعة والدائمة والناجحة، مع احتضانها للتنوع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي البشري، والذي يقوض فكرة أن التعايش بين شعوب من أديان مختلفة يعمل على تعزيز العنف، وبتأمين مناطقها بعد الانتصار على البيزنطيين، وهابسبورغ، أو على كافة المناطق العربية؛ يؤكد قصبا أنه لم يتم السعي إلى خلق مجتمعات متجانسة عرقيا أو دينيا، وأن الدولة العثمانية لم تحاول أن تتفاعل مع دول أخرى لحماية حدودها العسكرية، بل على العكس من ذلك -كما يكشف قصبا- فإن العثمانيين عملوا على الحفاظ على الحدود مفتوحة وغير محددة، لكي يتمكن التجار والبدو الرحل والجماعات والأفراد الآخرون المتجولون من التحرك عبرها، ومرة أخرى؛ يمثل هذا الإسهام تصحيحا للأفكار المعادية للدولة العثمانية فيما يتعلق بموضوع الهجرة.

وبصورة أعم، فإن استخدام موضوع التنقل في عهد الإمبراطورية العثمانية يعتبر وسيلة ممتازة، لكي نوضح للطلاب تعقيدات "العالم الإسلامي" الكبير، ولكي نحيي دراسة القضية العثمانية التي أهملت تربويان ويُنصح المدرسون الذين يستخدمون هذا الكتاب الصغير بأن يكونوا يقظين؛ حيث إن هناك طرحا متحررا للمصطلحات، دون مراعاة أنه يمكن أن يتم اختزالها من قبل القارئ؛

فمصطلحات مثل: القبيلة، والمواطنة، والعرق، وحتى "العثمانيين" تتطلب تأملا أعمق من مجرد ذكرها ببساطة.

وإحدي نقاط الضعف الرئيسة في هذا الكتاب، وخاصة بالنسبة للعلماء، هي أنه بكل بساطة يجعل استنتاجاته متزامنة مع الكتابات الراهنة حول الهجرة، سواء داخل مجال الدراسات العثمانية أو في العديد من التخصصات الأخرى، ويمكن بسهولة أن أذكر أربعا وعشرين من الدراسات الحديثة التي لم يرد ذكرها في كتاب قصبا، بل الأكثر من ذلك أن هناك مقالات كثيرة، كان يمكن -ويجب- أن يتم ذكرها وتضمينها في هذا العمل، كما أن عدم استخدام المصادر الأولية شيء محير، فقصبا يعتمد على انطباعات المفكرين في السبيعنيات من القرن الماضي، وأيضا على تأملات الرحالة البريطانين في رحلاتهم إلى الأناضول أو كردستان في القرن التاسع عشر، ومن ثم فهو يضيع فرصة ذهبية لجمع الدراسات الحديثة والمفيدة في الموضوعات المتعلقة بعمله هذا، وأيضا في الاستفادة من مجموعة متعددة من الدراسات المستمدة من المصادر العثمانية، ونتيجة لهذا الفشل في الاستفادة من الكتابات الموجودة حول الهجرة، فقد تم إهمال الجوانب المتعلقة بتنقل الناس في دراسة أكبر من "القضية" العثمانية التي تم عرضها في هذا الكتاب، فعلى سبيل المثال، تطرق قصبا بشكل وجيز إلى موضوع الهجرة الاقتصادية باعتبارها عاملا مساعدا في فترات التحضر التي أثبتت بوضوح أنها قوة كبرى في التاريخ العثماني، فجوانب الهجرة والاستيطان - وهي موضوعات تم بحثها بطرق مجردة إلى حد كبير- بحاجة إلى المزيد من الاهتمام، ومن المخيب للآمال هنا عدم أخذ الحج بعين الاعتبار، وكذلك الأسواق الإقليمية، والتجنيد العسكري، وهي أمور أسهمت بشكل كبير في موضوع الحركة والتنقل في الإمبراطورية العثمانية

وفي النهاية، فإن كتاب قصبا "الإمبراطورية المتحركة" يعتبر مفيدا لدرس الطلاب في الجامعات، كما يمكن الوصول إليه بسهولة، ويعتبر وسيلة تعليمية تكميلية، تركز على نقاط نحاول جميعا أن نبرزها، حول التنوع العرقي الذي عاشته الإمبراطورية العثمانية، لكن مع الأسف الشديد؛ فإن كتاب قصبا القصير لا يظهر بوضوح كيف أن المجتمعات المختلفة التي عاشت معا على الأراضي العثمانية كانت تُحكم على أسس اجتماعية واقتصادية مستقلة، فعلى سبيل المثال، كانت لسياسات الطبقة الحاكمة القادمة من مدينة أسطنبول ومؤسساتها تأثيرات معقدة -في كثير من الأحيان- على قضايا ملكية الأراضي، التي ظهرت بوضوح في القرن التاسع عشر في الاقتصاد العالمي المتغير الذي أدى إلى جعل الأراضي ومنتجاتها سلعا، وبإهمال قضية تنقل الناس في سياق هذه التحولات، لا أستطيع أن أُوصي باستخدام هذا الكتاب، كبحث حقيقي يتناول كيف أثرت الهجرة الطوعية والهجرة القسرية على سياسات الدولة العثمانية.

عيسي بلومي
لايبزيغ وجامعات ولاية جورجيا